خاتمة

1- الثغرة والبديل

إن فكرة البديل وأحادية العرض قد شاعت في العمل الإسلامي؛ إذ أصبحت كل فئة تدعي أن غيرها أخطأ وجانب الصواب وضل عن الهدف، وأنها وحدها التي سوف تنقذ الأمة، وتعيد ما انتقض من عراها، وأنها وحدها جماعة المسلمين، أو الجماعة أو الطائفة التي على حق. وقد أوجد هذا حالة من الفرقة والخلاف -بل والصراع- بين مختلف الفئات؛ إذ نجد أن كثيراً من الحركات الإصلاحية أخذت تؤصّل لفكرة كونها البديل عن سائر الحركات في أدبياتها وخطابها، وأطروحات قادتها.

ومظاهر الفرقة والتناحر والصراع التي نشهدها على الساحة الإسلامية بين فصائل الحركة ذاتها، وبينها وبين فصائل الأمة الأخرى، تنذر بأوخم العواقب للحركة الإسلامية، بل وعلى مستوى الأمة كلها. وهذه الأحادية، واعتبار كل فريق نفسه البديل عن كل ما عداه، والناطق الرسمي باسم الإسلام وباسم الأمة، جعل سائر الفئات تتصارع وتبدد جهودها في نزاعاتها، وتضيع أهداف الأمة العليا على مذابح النزاعات والفتن الداخلية. وقد ساعد على ذلك تلك التوجيهات التي جعلت الولاء للحركة وقيادتها تعبيراً عن الولاء للإسلام، وتحولت التكتلات من وسائل إلى هدف، وصارت التنظيمات الحركية هي الهدف الأساسي.

والتأصيل المنهجي لفكرة الثغرة واقتراحها كمنظور مخالف لفكرة البديل الأحادي في تبينها وإشاعة الوعي بها، حركة عملية مهمة تنظر إلى كل حركة

obeikandi.com

مخلصة على أنها حركة تقف على ثغرة من ثغور الأمة، يجب أن تحرص ألا تؤتى أو يؤتى الإسلام من قِبلها، ويجب أن يحرص الآخرون على أن يعينوها على تحقيق أهدافها وسد ثغرها.

وقضية «إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة» تسد ثغرة مهمة جداً، ولكن الثغرات المفتوحة على الأمة كثيرة، ويجب أن نعتبر مهمتها في تقديم القاعدة الفكرية والثقافية والمعرفية للأمة، وتحديد نقاط البدء الصحيحة لمسيرة الحركة الرشيدة لها، ورسم سلم الأولويات، وبناء قواعد التعامل المنهجي مع الواقع ومشاكله، وتحديد أهم طرائق التعامل معه، واقتراح مجموعة من البدائل الملائمة وفق ترتيب معين لحل المشاكل الكبرى، التي تعتبر محور علة الأمة وعوامل استمرارها، ملتزمين في ذلك بأصول الشريعة وقواعدها ومبادئها ومقاصدها، وأهدافها وكلياتها، وعاملين لإحياء مناهج التجديد والاجتهاد في الأمة.

وهذا الاتجاه، اتجاه «إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة»، يرمي ويسعى إلى سد ثغرة تصور البعض وجودها بين العقيدة والفكر حتى افترض البعض التناقض بينهما، على الرغم من وضوح الرؤية القرآنية في تزكية عمليات التفكير، والدعوة إليها. وفي تصور هذا التوجه إلى سد هذه الثغرة يتأتى من طبيعة النظر إلى كل منهما والعلاقة بينهما، سواءً من حيث جعل الفكرة الأداة الأساسية لفهم العقيدة والقيم النابعة منها، وإمكانية تحويلها إلى واقع معيش، أو من حيث الحدود العامة التي يتحرك في إطارها الفكر، إذ لا يمكن لفكر سليم أن يستغني عن سنده وقاعدته ومنطلقه وهو العقيدة، والعقيدة بدورها لا تستغني عن الفكر لتجسيدها في الواقع وتوفير شروط ذلك وأسبابه ومقوماته ومقاومة موانعه. فالعقيدة السليمة تساعد الفكر وتزكيه، وتطلق فاعليته، وتوظف إمكاناته في التفاعل مع قضايا الأمة وفق منهجية واضحة منضبطة علمية سليمة.

ثم إن كثيراً من الإسلاميين قد حرصوا على تحويل كل ما يتعلق بالمشروع الحضاري إلى جزء من العقيدة، وربطوها بقضاياها، ظناً أن ذلك سيكون

أدعى لتحريك الأمة، التي ما تزال العقيدة الإسلامية بمفهومها العام تؤدي دوراً مهماً في حياتها، فاضطرت فئات إلى الدخول في قضايا التكفير ونحوه من أحكام أدت إلى تعاظم الأزمات وتفاقمها.

وبعضهم توهم أن الكلام عن الفكر وإعلاء شأنه، سوف يضعف من الاهتمام بجانب العقيدة أو يشكل بديلاً عنها، وبعضهم توهم ترادفاً لفظياً بين الاثنين فشنّ على الفكر حملة، وعلى المفكرين المسلمين عامة حرباً شعواء ظناً منه بوجود صلة قربى بين هؤلاء المفكرين والمعتزلة الغابرين، غافلين أو متغافلين أن الدعوة إلى تصحيح العقيدة تستلزم إطاراً فكرياً يؤصل معناها ويحول قضاياها إلى حركة فاعلة في حياة الأمة وبنيانها الحياتي والحضاري، وهل هناك عقيدة لا تبدأ بفكر، ثم تصور، ثم برهنة أو استدلال أو تقليد، يحولها إلى شيء يجزم القلب به ويربطه عليه؟

فإصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة -في حقيقة الأمر- خطاب إلى الأمة لا يغفل أسس العقيدة وقواعدها، بل ينظر إليها على أنها القاعدة الفكرية، والأصل الذي يقوم عليه عالم الأفكار كله. فالوحي مصدر للمعرفة والثقافة والحضارة، ومن العقيدة ننطلق في تصورنا للوجود كله ووظائفه وعلاقاته وطبيعة حضارته وعمرانه، والعقيدة هي الأصل الذي تجتمع عليه الأمة فيوجد هويتها وتوجهاتها، وينمي وعيها بكل عناصره ومستوياته، سواءً أكان وعيها الذاتي، أم وعيها بالغير، أم وعيها بالموقف.

كما أنها في كل هذا تتناول ضمن مهمات أخرى متعددة المستويات، ومتنوعة المجالات تبين حدوده التعامل مع المصادر الأصلية، باعتبارها مصادر للمعرفة والثقافة والفكر الإسلامي، بما يجعل لها مكانها الأصيل في تشكيل عقلية الأمة، وبناء نفسيتها، وتحديد مسار حركتها وفعاليتها، لتحقيق نموها الحضاري. فتحقيق تلك المصادر وتحديدها يعد شرطاً لتحقيق عملية التجديد الحضاري المستمر المتواصل.

ومع ما لخطابها من أهمية وتناول شمولي، فإننا ينبغي أن لا نغفل لحظة عن أننا ثغرة من ثغور الأمة، ولسنا بديلاً عن أحد. وخطابنا هو للأمة

بأسرها؛ إلى الإسلاميين بدعوتهم للخروج من غيابهم الثقافي، وركونهم إلى الماضي، وإلى فصائل الأمة الأخرى للخروج من حالة الغياب الثقافي باتجاهها التغريبي واستهلاك ثقافة الغرب. بل قد يصل خطابنا إلى خارج حدود دوائر أمتنا ليصبح صوتاً من أصوات الإنقاذ العالمي، التي بدأت تتكاثر بحثاً عن مخرج من هذه الأزمة العالمية، أزمة الفصام بين العلم والقيم، فإن جانباً من جوانب قضيتنا يعالج هذه الناحية التي يبحث علماء العالم ومثقفوه عن علاج لها.

وبناءً على ذلك فإن قضية «إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة» لا يختص خطابها بالإسلاميين وقيادتهم الفكرية، بل يتعداهم إلى القطاعات العريضة للأمة على اختلاف توجهاتها الفكرية والثقافية. وقد يتعداها إلى أصول تلك التوجهات من حضارة الغرب ذاته. وهي - أي إسلامية المعرفة - عندما تتواصل مع الفريق الأول، ترمي إلى البناء على أطروحاتهم الفكرية ترشيداً وتقويماً وإضافة وتأصيلاً وإضافة. وهي كذلك عندما تتجاوز مع الفريق الثاني (اللاديني)، تحاول إقناعهم أن ما قدموه من أطروحات فكرية بعيدة عن عقيدة الأمة وحقيقة هويتها وأصول واقعها، قد أفقدها فاعليتها ومصداقيتها وقدرتها على حشد طاقات الأمة، مما أدى إلى فشلها وانصراف الأمة عنها وإعراضها.

وخلاصة الأمر، فإن علينا أن ندرك أن قضية «إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة» قد ظللت قضية مهملة بالرغم من خطورتها. ذلك أنه منذ بدأ التغلغل الاستعماري في العالم الإسلامي، والنمط المعرفي -الثقافي- التعليمي للأمة صار نمطاً خاضعاً تابعاً مستهلكاً للثقافة الغربية، ودائراً في فلك تلك الحضارة الغربية. وقد تخلصت ديار المسلمين في أماكن كثيرة في العالم من الاستعمار العسكري والسياسي، لكنها لم تستطع لحد الآن التخلص من الاستعمار الفكري والثقافي، الذي أدى إلى احتواء العقل المسلم، وإعادة تشكيله وتطويعه للتبعية الغربية.

ومن هنا صار لزاماً للفكاك من هذا النمط من التبعية المعرفية والثقافية

والفكرية والمنهجية والحضارية، أن يضطلع اتجاه بتحرير الأمة، والأخذ بيدها نحو إصلاح مناهج فكرها وبناء نسقها الثقافي.

2- قضية «إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة» والحزب

قد يحار المرء في وصف قضية «إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة» أهي حركة أم فئة، أم حزب، أم غير ذلك؟ وواقع الأمر أن قضيتنا لا تسعى إلى شيء من ذلك.

إنها لا تسعى -وهي تقدم مشروعها الفكري والحضاري لمعالجة قضايا الأمة- لأن تقدم نفسها بديلاً كما أوضحنا من قبل.

فهي لا ترمي إلى أن تكون تعبيراً عن حركة سياسية أو حزب أو توجه، لأنها تعي طبيعة دورها الحضاري الشامل في عملية الإصلاح، وتدرك أن الأمة ليست في حاجة إلى مزيد من التحزبات السياسية وتشتيت الوجهة. فهي في حقيقتها وجوهرها حركة مجمعة، تهتم بقضايا الفكر والمعرفة والثقافة والحضارة والمنهج ووحدة الأمة، باعتبار كل ذلك من أهم الشروط للوصول إلى هدف الشهود الحضاري. وهي ترى أن على كل حركة مخلصة أو جهة أن تضطلع بدورها في هذا المقام.

أما هي، فعليها أن تسعى وتحرص على أن تكون تياراً ثقافياً يصل إلى كل حزب، يستفاد منه من كل جانب، لا تحده حزبية أو فئوية لها قدر من الوعي بطبيعة مهمتها ووظيفتها، مما يحول بينها وبين أن تستدرج إلى هذا الموقف أو ذاك، فتنضوي تحت أي حزب أو حركة غير الأمة كلها وحركتها باتجاه تحقيق أهدافها.

فينبغي أن يكون القصد تحول تيار هذه القضية إلى حركة ثقافية وفكرية واسعة، وأن يصبح روحاً في الأمة يصل إلى سائر فصائلها، يجمعها على الفكر الإسلامي السليم، والمنهج القرآني القويم، فتحق النهضة، ويقوم العمران، وتستأنف الأمة دورتها الحضارية، ودورها في الشهود والوسطية، فتخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وليس لأحد أن يرمي قضيتنا -بعد هذا الموقف الواضح الذي يتجاوز أطر العمل الإسلامي الحالية على تنوعها- بأنها تمارس عملاً ذهنياً منبت الصلة عن الواقع أو التفاعل معه، أو أنها تعبر عن ترف فكري، فهؤلاء يجهلون أو يتجاهلون حقيقة عملية الفكر وطبيعة دوره ووظيفته في الإصلاح والعمران والحضارة. فإسلامية المعرفة تربط بين جانبين لا ينفصلان: فكر الحركة وحركة الفكر، لتؤكد على ضرورة المشروع الفكري الإسلامي للمشروع الحضاري للأمة، هذا المشروع الذي ظلم ونحي جانباً بلا مبرر.

وهي في هذا تعي أن القاعدة الفكرية مقدمة للحركة والعمل السليم والصحيح، وأن افتقداها يعني الفوضى والاضطراب. كما أنها ترى -أي إسلامية المعرفة- أن غيبة عملية الإسلامية ومتطلباتها ومستلزماتها الفكرية والتربوية والثقافية والمعرفية في تصور بعض الحركات، هو الذي يجعلها لا تقدرعلى فقه الواقع المعيش أو تعتبره الاعتبار المناسب له، والقادر على التفاعل معه دون خضوع له.

وإسلامية المعرفة تعتبر نفسها جانباً من جوانب الإسلامية، باعتبار الإسلامية إطاراً قيمياً حضارياً شاملاً للفرد والمجتمع، للفكر والعمل، للتعلم والممارسة، للمعرفة والتنظيم، للراعي والرعية، للدنيا والآخرة، يبتغي بها الإنسان المسلم رضاه سبحانه وتعالى بالحق والعدل والإعمار والإصلاح.

وإسلامية المعرفة هي جانب أساسي في بناء الإسلامية، يختص بالفكر والتصور والمحتوى الإنساني القيمي وكيفية بنائه وتركيبه وعلاقاته في النفس والعقل والضمير (أي تغيير ما بالنفس)، وهي تعني بذلك منهجية إسلامية قويمة تلتزم توجيه الوحي في ضوء الفهم الإنساني لمقاصد الشرع وغاياته، وكلياته ومعطيات الواقع وحاجاته. كما أنها تعني وتمثل بالضرورة القدرات والإنجازات العلمية والحضارية الصحيحة، بعد أن تمحصها وتزنها بميزان الإسلام وشمولية قيمه وتوجيهاته وغاياته.

وهي ليست قيماً وغايات فقط، وليست تأملات فردية، وليست تاريخاً وتراثاً فحسب، ولكنها سبيل لتكوين عقلية علمية منهجية من وجوه العلم

والثقافة والفكر والمعرفة الاجتماعية والإنسانية والطبيعية والتطبيقية كافة، وهي في كل ذلك تستثمر الإمكانات وكافة معطيات الوحي وقدرة العقل والفكر والمنهج المسلم في سد حاجة الأمة، ومواجهة التحديات التي تواجهها، وتقديم الطاقة والزاد الفكري والرؤية، والمفاهيم الفكرية والحضارية اللازمة لإنجاح مسيرة بناء مرافقها وأنظمتها.

وهي بحكم دورها ووظيفتها، وبحكم غاياتها ومقاصدها، لا يمكن أن تستوعب، وليس لها ذلك، في حدود تنظيم أو حزب أو حركة محدودة التأثير في المكان وفي جمهور الخطاب، بل يجب أن تجعل من الأمة كلها بجميع فصائلها جمهور خطابها.

إنها تيار يسعى لأن يكون محتوى لعقل الأمة ونفسيتها، حتى تتأهل لتمارس عملية التغيير والإصلاح الحضاري الشامل بخطى راسخة وطيدة، وتعي أن كلمتها يجب أن تكون دائماً طيبة في أصلها وتأسيسها، في محتواها ومضمونها، في غاياتها ومقاصدها، في وسائلها وأدواتها، أصلها ثابت راسخ، وفرعها في السماء، ترتبط في فكرها وحركتها بعقيدة التوحيد، مبتغية مرضاة الله سبحانه وتعالى.

«**إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب**».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين